

عمارة المنازل في الحضارة الإسلامية



بني الرسول (ص) مساكنه إلى جوار المسجد في المدينة المنورة، وقد قال الكتاني في التراطيب الإدارية: "ثم بني (ص) مساكنه إلى جنب المسجد باللبن، وسقفها بجذوع النخل والجريدة، وكان محيطها مبنياً باللبن وقواطعها الداخلية من الجريد المكسو بالطين والمسوح الصوفية، وجعل لها أبواباً ونوافذ متقدمة الهواء داعية إلى السهول في الدخول والخروج وخفة الحركة مع وفر في الزمن والسرعة إلى المقصود. عن هدي رسول الله (ص) في تدبيره لأمر مسكنه (يقول ابن قيم الجوزية: "لما علم (ص) أنه على ظهر سير، وأنا الدنيا مرحلة مسافر ينزل فيها مدة عمره، ثم يتنقل عنها إلى الآخرة، لم يكن من هديه وهدي أصحابه، ومن تبعه الاعتناء بالمساكن وتشييدها، وتعليقها وزخرفتها وتوسيعها، بل كانت من أحسن منازل المسافر تقي الحر والبرد، وتستر عن العيون، تمنع من ولوج الدواب، ولن يست تحت الأرض فتؤذني ساكنها، ولا في غاية الارتفاع عليها، بل وسط، وتلك أعدل المساكن وأنفعها، وأقلها حرّاً وبرداً، ولا تضيق عن ساكنها، فينحصر، ولا تفضل عنه برائحتها، بل رائحتها من أطيب الروائح لأنه كان يحب الطيب، ولا ريب أنَّ هذه من أعدل المساكن وأنفعها وأوفتها للبدن، وحفظ صحته". في هذا العرض الموجز عرض لنا ابن القيم الشروط التي يجب توافرها في المنزل الإسلامي، وهي: البساطة، التلقائية، الخصوصية، التوافق مع البيئة. هذه الفلسفة في عمارة المساكن نرى ابن العربي يعبر عنها كما يلي: "إنَّ الله سبحانه وتعالى خص الناس بالمنازل، وسترهم فيها عن الأ بصار، وملتهم الاستمتاع بها على الإنفراد، وحجر على الخلق أن

يطلعوا على من فيها من خارج، أو يلحوها بغير إذن أربابها، لئلا يهتكوا أستارهم، ويبلوا في أخبارهم". الواجهات نص قصصي: يعد تكوين واجهات المبني السكنية في العمارة الإسلامية، أشبه بتكون نص قصصي، فمكوناً لها تروي حكاية تكوين المبني، وترسم ملامح هيكليته، ومن خلال عناصر الواجهة، المعمارية والزخرفية، يمكن التعرف على نوعية وظيفة كل فضاء من الفضاءات الوظيفية للمبني، وأبعاد حدوده وموقعه من حيث الترتيب في التكوين العام للمبني أو من حيث توجيهه، هذا بالإضافة إلى أهميته في هذا التكوين. كما توضح الفتحات وسعتها، وكثافة ونوعية التشكيل الزخرفي للواجهة جهتها، وتحدد عناصر الواجهة جهتها، وتحدد عناصر الواجهة المعمارية والزخرفية نوعية المعالجة البيئية أو الإنسانية. لذا كان لمبدأ حيازة الضرر أثر بالغ على تكوين واجهات المنازل في مدینتی رشید والقاهرة، وللمح هذا بوضوح من خلال واجهات منازل رشيد، فمبدأ حيازة الضرر الذي يسبقه به الجار جاره، جعل صاحب منزل الجمل يفتح نافذة أسفل خرج منزل محارم الأسبق تاريخياً، وهذا يعني أن منزل الجمل أحدث تاريخياً، وأنه منشئه لم يستطع أن يفتح نوافذ جانبية في منزل الجمل، إلا أسفل خرج منزل محارم. وبذلك نستطيع من خلال مثل هذا النوع من فتحات المنازل تأريخ المنازل الأثرية المجاورة وتحديد أيها أسبق تاريخياً، وقد أرخ أحد الباحثين منزل محارم بأزمه يعود للقرن 12هـ / 18م، وأرخ منزل الجمل بأزمه يعود للقرن 12هـ / 18م، ولكنه لم يحدد أيهما أسبق تاريخياً، وبناء على الاستدلال السابق نستطيع أن نستنتج أنَّ منزل محارم أقدم تاريخياً من منزل الجمل، وكذلك لم يستطع منشئ منزل الجمل أن يبرز بخروجه عن سمت خرج منزل محارم، حتى لا يسد النوافذ الشرقية للجزء البارز من واجهة منزل محارم. ويبدو أنَّ هذه الظاهرة شاعت في رشيد إذ نرى في منزل علي الفطايري برشيد، لجوء المنزل المجاور لنفس الطريقة لفتح نافذة أسفل خرج منزل الفطايري وهو ما يعني أنَّ منزل الفطايري المؤرخ عام 1030هـ / 1620م، نستطيع من خلال تأريخ المنزل المجاور له بتاريخ لاحق () بينما يرتد المنزل الأمامي في الصورة رقم 7 بالكراسة رقم 16 بدراسات لجنة الآثار العربية عن المنزل المجاور به، مما يعني أنَّ المنزل الأمامي أحدث تاريخياً. وقد يحوز الضرر أحد المنازل، فيفتح نوافذ في جانبي خرج المنزل على الشارع، ولا يستطيع جاره عند بنائه سد هذه النوافذ فيرتد في جزء من بروز واجهته ليبرز مرة ثانية في أحد الطوابق العليا عندما يكون قد تلافي ضرر جاره، وهذا ما نراه بوضوح في منزل رمضان برشيد الذي تلافي مهندسه سد النوافذ الغربية لخرج منزل محارم، وبالتالي اضطر إلى الارتداد في جزء من خرج الواجهة إلى ارتفاع الطابق الأول علوى، متفادياً بذلك كشف نوافذ الجار، وقد عاد للبروز مرة أخرى في الطابق الثاني، حيث استخدم في نوافذه الخشب الخرط الميموني الضيق، الذي لا يسمح لأي من الطرفين كشف الآخر بوضوح، وبذلك يكون منزل محارم أسبق تاريخياً من الناحية الإنسانية، من منزل

رمضان وتكررت هذه الظاهرة مرة أخرى في منازل رشيد، فنراها بوضوح في منزل عثمان أغاثي الأمصيلي الذي يرجع للقرن 13هـ / 19م. حيث اضطر معمار منزل الأمصيلي إلى الارتداد بخرج منزل الأمصيلي بالطابق الأول علوى، حتى يتفادى هذه المرة سد النوافذ الغربية لخرج منزل حسيبة غزال، وكذلك لعدم كشف من بالطابق الأول علوى، وقد عاد بالبروز مرة أخرى بالطابق الثاني، حيث لا توجد نوافذ لمنزل حسيبة غزال بخرج هذا الطابق. وأخذت هذه الظاهرة شكلاً آخر لافتًا للنظر في منزل ثابت، إذ ارتد المعمار بخرج الواجهة إلى الطابق الثالث علوى، وهو ما يعني أنّ "جاره الذي لم يعد موجوداً حالياً" قد سبقه تاريخياً ولم يستطع معمار منزل ثابت البروز بالواجهة إلى آخر الطابق الأخير من المنزل. وقد أعطت هذه الارتدادات تنفيماً رائعاً لتشكيل واجهات المنازل في رشيد قل أن نجده في منطقة أخرى، وقد حلها المعمار بكرانيش وكرادى حاملة للبروز في الطوابق العليا، يزخرف أحياناً باطن بروز الخرج في الطابق التالي بالأطباق النجمية كما هو الحال في منزل الأمصيلي. هناك رأى للإمام سحنون في هذه البروز التي سُئل عنها، فقد قيل له: الرفوف والعساكر تطل على الطريق هل يمنع من ذلك عاملها؟ قال: لا لم تزل هذه حال العساكر والرفوف يتتخذها الناس ويطلقون بها على الطريق فلا أرى يمنع أحد من ذلك مالم يضر بأحد. وفي القاهرة نرى تأثيراً آخر واضحًا لمبدأ حيارة الضرر، فالواجهة الجنوبية لمنزل زينب خاتون 9هـ / 15م، قد تأثرت بحصار المنزل المقابل لها لأضرار عديدة فالعمار لم يستطع البروز بروشن على هذه الواجهة إلا في الجدار الشرقي لارتداد الواجهة، متلافياً بذلك الإضرار بجاره، وهذا الارتداد اضطر إليه المعمار للحفاظ على خط تنظيم الطريق، فضلاً عن قلة النوافذ بهذه الواجهة. أما في منزل الهراوي (1144هـ / 1731م) فقد حاز جاره الضرر بسبق بنائه، ولذا فقد منشى المنزل ميزة فتح نوافذ على جاره في الجدار الشمالي، مما جعله يضع الفناء في هذا الصلع ويرتفع بجدراته الشمالي ويفتح عليه العناصر الرئيسية للمنزل. حق الهواء: ومن مظاهر دور الفقه في العمارة السكنية حق التعلق في الهواء أو البروز في الهواء، ونرى ذلك في منزل التوقاولي برشيد (12هـ / 18م) والذي برز فيه المعمار بروشنين في الواجهتين الشرقية والغربية ولم تتبقى لنا منازل أثرية بها تين الواجهتين حتى نستطيع أن نجزم بأنّه بذلك قد حاز الضرر سابقاً جاريه، ولكن على أيّة حال فإنّ هذا الفعل قد تم بالطابق الأخير من المنزل، وهو ما يعني أنّ "ضرر الجار ربما يكون قد تلاوه المعمار في هذا الطابق، ونرى مظهراً آخر للبروز في الهواء دون الإضرار بالجار، حينما برز معمار منزل رمضان بحمام المنزل في الطابق الأخير منه إلى فناء منزل محارم ومن المعروف أنّ الحمامات لا تفتح بها نوافذ يمكن منها كشف الجار، ولكن يتم تزويدها بأسقف جصيه، يتخللها الزجاج الملون لإضاءة الحمام، وبالتالي لا يشكل بروز الحمام ضرراً بالجار. كان للخصوصية أثر واضح على الواجهات نراه

بوضوح في تلك الفتحة المعقودة التي توجد أسفل كل سبيل ملحق بأي من منازل رشيد، هذه الفتحة التي كان يطلق عليها في رشيد "النازوره"، كانت تستخدم وقت الفيضان في ملء صهريج المنزل والسبيل بالمياه من قبل السقاء دون حاجة منه إلى الدخول للمنزل، ومن المعروف أنَّ كتب الحسبة شددت كثيراً على الآداب المتعلقة بالسقاء وعمله. ومن العناصر التي نرى تأثيرها على الواجهات: المشربيات، والشبايك ذات الخشب الخرط فنري المعمار في الطابق الأول بمنازل رشيد قد استخدم الخشب الخرط الصهريجي، وأنواع أخرى التي تتميز باتساعها، بينما استخدم في الأدوار العليا الخشب الخرط الميموني وتشكيلاته المختلفة، وكذلك المشربيات والرواشن التي تتميز بأأنَّها أكثر ضيقاً، وبذلك لا يستطيع الجار المواجه كشف من بهذه الطوابق، وهي المخصصة للحرير، بينما نجد في الطابق الأول استخدام أنواع من الخشب الخرط الأوسع، وهو طابق الاستقبال الخاص بالرجال. هكذا نرى بوضوح أثر الخصوصية على واجهات منازل رشيد ولعل هذا يقدم لنا تفسيراً للتنوع في مساحات وتطبيقات نوافذ قاعة محب الدين (751هـ / 1350م) التي تطل على شارع بيت القاضي بالقاهرة. لكننا هنا سنتوقف عند نوع من النوافذ يسمح بإدخال الضوء دون أن يسمح الخارج، ولذا فإنَّه يكشف عن تطبيق مبدأ ضرر الكشف، إذ لا يسمح لصاحب المنزل بكشف جاره، وهي عادة تكون علوية مغطاة بالجمل المخرم أو الحجر أو الخشب أحياناً بأشكال نباتية وهندسية مشبكة ومخرمة، ثمَّ شاع فيها استعمال الزجاج الملون المعشق، وتغطي من الخارج بأشرطة أو شبكه من النحاس للمحافظة عليها.

القمريه: والقمريه إما مستديرة أو مستطيلة مقنطرة أو مربعة، وتوضع القمريات غالباً في "شند" ومعناها ثلاثة، فيرد في الوثائق المملوكية "أشناد" و"شند قمريات" أو في مجموعات من سقة ثلاثة مستطيلة تعلوها ثلاثة مستديرة وتسمى "دست" أو "دست قمريات". وأحياناً يطلق على القمرية شمسية أو شمسيات سواء كان عليها زجاج أم لا. والقمريات كانت من ضمن المسائل التي وردت في كتابات الفقهاء، فمنها: "لزيد مربع في داره وله طاقات للضوء تسمى بالقماري يأتي إليها الضوء من دار جاره في قديم الزمان، ولجاره في داره مربع أيضاً أسفل من الأول، وسطحه أسفل من القماري، يريد الجار أن يبني على مربعه المذكور طبقة مسقفه بسقف فوق القماري، بحيث يكون الحائط والقماري داخلين فيها، ويُسند بذلك الضوء المذكور بالكلية، وفي ذلك ضرر بين لزيد، ويريد زيد منع الجار عن ذلك فهل له منعه؟

الجواب: نعم.. فإنَّ سد الضوء بالكلية بأن يمنع من تلاوة القرآن الكريم، والكتابة ضرر فاحش، فيمنع منه كما أفتى بذلك العلامة أبو السعود. قال ابن عابدين: "أقول: إذا كان قمرياتان فسد ضوء إحداهما بالكلية مع إمكان الانتفاع بالأخرى لا يمنع، والظاهر أنَّ ضوء الباب لا يعتبر لأنَّه قد يضطر إلى غلقه لبرد ونحوه، والظاهر أنَّ الشباك كالباب وإنْ تعلى أعلم". المصدر: مجلة البيت العربي/ العدد 10 لسنة 2012م

